الخضر

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء الآية ٨٥)

لك الله يا موسى ، حين تُفْنِى جُهودَك ، فلا تدرِى أتوجهها إلى فرعون ؟ أم توجهها إلى قومك بنى إسرائيل ، أم توجهها إلى قارون وأمثاله من هؤلاء المفترين ؟ أم تجمع نفسك ، لتتجه إلى ربك ، تستعينه وتستهديه فى تأدية رسالتك ونشر دينك ؟ أم تتجه إلى ربك تحمده على أن أكرمك ، حين نصرك على عدوك !

* * *

ولكن ! أترى يا موسى أخذتْك نَشْوةُ الانتصار ، وشعشعك إكرام الله ، يوم وقفت تخطب وتعِظ ، وتبين للناس ، معالم الدين ، وتفسر التوراة !

ويوم أن غمرت السامعين برَوْعة علمك ، وفصاحة بيانك ، حتى سألوك .

هل فى الناس يا موسى من هو أعلم منك ؟ وسرى فى نفسك ما يسرى فى طبيعة البشر ، وحسبت أنك شيخ الأنبياء ، وكليمُ الله ، وأنك صهر شعيب ، وأنك ربيب القصور ، وأنك مُغْرِقُ فرعون ، وأنك غالب السَّحرة ، وأنك مُفَجِّر الماء من الصخرة ، وأنك فالق البحر ، وأنك صاحب التوراة ، وأنك تغترف من بحر علم الله !

* * *

ولكن الله سبحانه ، أوحى إليك ، إن بحر علمك يا موسى ،قطْرة . من بحر علم المقرَّبين وأن من عبادى . عبدًا صالحًا تلقاه ، عند مجمع بحر الروم وبحر فارس ، فيما يلى الشرق ، وقد آتيناه من لدُنَّا علمًا .

وموسى ، الذى يرى أنه المحظىُّ عند ربه ، الأثير لديه دون أنبيائه ، لابد أن يلقى هذا العبد الصالح ، ويرحل فى طلبه ، ويسعى لصحبته ، ويلتمس من علمه ، حتى لو أمضى حِقْبةً أو حِقبًا من الزمان .

* * *

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾

(الكهف الآية ٦٠)

وأوصى الفتى ، أن يأخذ غداءهما ، حوتًا من حيتان البحر ، فى مِقْطف أو مِكْتل . وسارا إلى الشرق ، ودائما يرحل إلى الشرق ، ويقتبس النور من الشرق ، فالشرق منزل الوحى ومنبع الأديان ، ومسقط الرسالات ، وحقل الروحانيات .

وسارا حتى كدَّهما السير ، وأضناهما الارتحال ، فناما على صخرة ، فى ظل شجرة ، على شاطئ البحر ، ونزل المطر ،فبلل الحوت ، فصحا وقفز إلى البحر ، وهما لا يشعران .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

(الكهف الآية ٦١)

وتابعا السير ، حتى وقفا على البحرين ، وماذا هناك ؟ إلا أن يرى قدرة ربنا سبحانه ، ويسرح فى تأملاته ، ويسبح فى صلواته ، ويتيه فى ملكوت رب العالمين .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾

(الفرقان الآية ٥٣)

﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(فاطر الآية ١٢)

ولعل لله حكمة ، فى أن جعل موعد لقائهما عند مجمع البحرين ، حتى يشبع نفسه من تمجيد الله فى جلاله ، وحتى يغسل ما علق فى نفسه من زَهْوٍ فى نسماته وحتى يعود إلى العبد الصالح وقد خلص من كل مظاهر الحياة ، إلا من الماء ، وهو أصل الحياة .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

(الأنبياء الآية ٣٠)

* * *

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾

(الكهف الآية ٦٢)

قال :

﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

(الكهف الآية ٦٣)

* * *

وأنصت موسى إلى نفسه ، وعجب من أمر الفتى والحوت ، وكيف يحيا الحوت وهو فى المكتل ! ثم يقفز إلى البحر ؟ فيعود إلى الماء ، وكيف ينسى الفتى هذا الحوت الكبير ، ولا يحس بالمكتل ، وهو يحس ثقله وفيه حوت ، وخفة وزنه حين خلا من الحوت ؟

ويا ترى ! أيكون الشيطان إبليس فى أثرى ، حتى وأنا فى هذه الرحلة ! لعل سرًّا من أسرار الله ، فى ذلك المكان ، الذى نمنا فيه . على صخرة ، تحت الشجرة ، ولعل موعدنا مع العبد الصالح هناك ولا ندرى !

عُدْ بنا يا فتى إلى حيث كنا ،وإياك أن تنيه فى عودتنا ، فها هى ذى آثار أقدامنا ، فلنقصصها ، حتى تهدينا إلى الصخرة المباركة .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾

(الكهف الآية ٦٥)

وما كان العبد الصالح ، إلا شيخًا نحيلاً ،وطوى جسمه الناحل فى ردائه ، فجعل بعضه تحت رأسه ،وغطى جسمه ببعضه ،فى هذا العراء الذى لا نهاية له ، وفى هذا النَّومة اغادئة ، على شاطئ ماءٍ لا حد له ، وفى هذه الوحدة الموحشة ، التى لا مؤنس فيها ، إلا الإغراق فى بحر علم الله .

ومال عليه موسى ، فصحا الشيخ من هدأته ،وسلم موسى فسلَّم ، وقدَّم نفسه إليه فعرف ، وعرض عليه أن يتلمذ عليه ، فتأبَّى عليه ، واستوسع علمَه على موسى ، وبيَّن له أن بحر علم الظاهر ، لا يساوى قطرةً من بحر علم الباطن .

وشرح له أن علمك يا موسى ، الذى زَهَتْ به نفسك ، تبتدئ به عند مرحلة أعلى من إحاطتك ، وطاقةٍ أقوى من طاقتك ، وصبر أصبر مما تحسه فى نفسك .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ (الكهف الآيات ٦٦-٦٨)

* * *

وموسى فى سبيل الله ، والوصول إلى الله ، لا يغضب من الشيخ ، ولا ينفر من تهوينه ، ولا ييأس من تصعيبه ، ويبدى استعداده وتلهفه على علم جديد ، فوق ما كان يظن أنه قد علم ،وأتم العلم .

﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾ (الكهف الآية ٦٩)

ولأمر ما يا تُرى ، اشترط العبدُ الصالح على موسى ، أن يصبر ، وألا يتعجل ؟

أكان ذلك ، لما فى طبيعة الإنسان من اللهفة على استيضاح المُبْهم ، وتفسير المستغلق ، وحذر النفس ، وقلقها مما تكنُّه أستار الغيب تدفعها إلى ذلك غريزة حب الاستطلاع ؟

* * *

فقد يرى الإنسان ظاهرة من ظواهر الكون ، فلا يفهم ، فيسارع إلى السؤال والاستفسار ، فإن لم يجد من يسبقه بالتوضيح ، وضح لنفسه ، ثم يحكم بما يحكم ، وهو لا يدرى ، إن كان على هدىً ، أو كان فى ضلال مبين .

* * *

قال العبد الصالح

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾

(الكهف الآيتان ٧٠/٧١)

خرقها العبدُ الصالح .

فتلفَّت موسى إلى أصحاب السفينة ، وإلى أستاذه الشيخ ، وعجب من فعله ، وركاب

البحر يخافون الغَرَق ، ويَرُمُّون كل خرقٍ فى سفينتهم ، فما بال هذا الشيخ يعكس الآية ، ويخرق السفينة ؟

لابد أنه يود أن يُغرق أهلها ، ويغرقنا معهم ، وهذه الحياة ، لا يغامرُ بها إنسان ، فماذا بعد أن يغرقنا هذا الشيخ الذى عاهدنى على ألا أتعجَّل ، وألا أسأل ؟

* * *

فمال موسى يهمس فى أذن أستاذه ، وقد تخطَّى حدود المعاهدة التى عقداها عند الصخرة ، وقال له

﴿ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧١)

فاستدار الشيخ إليه ؛ فى هدأة العالم يحنُو على تلميذه يذكره بمعاهدته ؛ ويزجره ، على نقض عهده ، وقال له

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧٢)

وخجِل موسى ، واعتذر من فعله ، واعتَلَّ بنسيانه ، واستغفر من ذنبه ، وتوقَّع أن يَحيقَ به شرٌّ من مخالفة هذا الشيخ الخطير . وقال :

﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧٣)

* * *

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾

(الكهف الآية ٧٤)

العبدُ الصالح .

فانزعج موسى لهذه الجناية ، جناية قتل غلام جميل ناضر برىء لم يُجْرِم ولم يسئ إلى أحد ، وماذا يكون جزاؤنا من أهله إن أدركونا ؟

وأين هذه الجناية من دين موسى ، الذى يُحرّمها ، ويتوعد القاتلين بالقتل وبغضب الله ؟ ولم يستطع موسى صبرًا على أستاذه ، مهما كان يُجِلُّه ويجامله .

واستفهم استفهامًا إنكاريًا

﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧٤)

فاستدار الشيخ إليه ، فى هدأة الحُلماء الحكماء ، حين لا يَضيقون بتلاميذ متسرِّعين ، ولا بمُريدين حَمْقى ، وذكَّره بمعاهدته ، وقال :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ (الكهف الآية ٧٥)

وثاب موسى إلى رُشده ، وارتد إلى عهده ، وحاسب نفسه ، وتذكَّر أن هذه هى الثانية . وأن الأولى لك ، والثانية محسوبةٌ عليك .

وما هذا بالمنهج المُرْضى ، ولا الأسلوب المقبول ، أن تُنْقَض العهود ، وأن تُنْسى المواثيق ، وما هذا بأدب التَّلقِّى ، ولا هو بسلوك المريدين !

* * *

فلم يرض عن نفسه ، وتضاءل بين يدى أستاذه ، وطيب خاطره ، وفرض فرضًا جديدًا ، وبندًا شديدًا فى بُنود معاهدته ، وقال :

﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧٦)

* * *

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا ﴾

(الكهف الآية ٧٧)

فاشمأزَّت نفسُ موسى من هذا الشُّحِّ البادى على أهلها ، وهمَّ أن يُندِّد بهم . ويتنقَّصهم ، ويخدِش كرامتهم .

ولكنه لمَّ نفسه ، وكَمَّ فمه ، وكظم غيظه ، فهو منذ قريب ، قد أحْرج نفسه ، فضاقت دائرة الاعتذار عليه .

ثم سارا ، فوجدوا فى هذه القرية جدارًا مائلاً ، يريد أن ينقضَّ ، فيقع متهدمًا . فأخذ العبد الصالح يُقيمه ، ويدعمه ويسنده ، وقضى فى ذلك وقتًا ، وبذل جهدًا ، واستحق على ذلك شكرًا وأجرًا ، ولم يتقدم أحد بأجر ولا بشكر .

ويمضى الشيخ مطمئن النفس ، مرتاح الضمير ، ويعجب موسى ، وينفد صبْرُه ، ولم تبق فيه طاقة . أن يسكت على مايرى من أمر الشيخ ، وفعله المعروف فى قريةٍ كَرَّة ، لا يستحق أهلها سلامًا ولا كلامًا ولا اهتمامًا .

وقال فى أدب وتواضع ، ليس فيه عتاب ولا ملام :

﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧٧)

ولطالبتَ هؤلاءِ الناس بجزاء ماأسلفت من معروف .

فاستدار إليه الشيخ ، فى حزم وعزم ، كمن يأخذ المخالف بمخالفته ، والمعاهد بمعاهدته ، والفاعل باعترافه ، وقال :

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(الكهف الآية ٧٨)

* * *

اسمعْ يا موسى

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(الكهف الآيات ٧٩ - ٨٢)

فأين علمُك الظاهرُ ياموسى ، من علم أستاذك الباطن ؟

خذ من الخضر ، وابدأ من جديد ، تتعلمْ من المهد إلى اللحد .

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(الإسراء الآية ٨٥)

* * *